التسامح في الغيرة في شعر مسكين الدارمي

د. مرزوق بن صنيتان بن تنباك

لم يكن خطأ اعتبار عصر بني أمية عصر اكتمال فنون الشعر العربي وظهور كناناته واستوائه على سوقه حيث تفرع مذهب القول وتميز الشعراء كما تميزت مذاهبهم الفنيّة وظهر بجلاء فن النقائض واكتمل نماؤه، وظهر شعر الغزل بشقيه الصريح والعذري، وعرف شعراؤه ومريدوه، وفي هذا العصر ظهر المذهب السياسي في الشعر فكان له أنصاره وشعراؤه.

وقد كان عصر التفتح على ينابيع الشعر والنهل من موارده وتفجيرها إلى عيون جارية أفاضها شعراء عصر بني أمية على سطح الأرض وفرعوها إلى جداول وأنهار تسقي العواطف الملتهبة المتطلعة إلى شتى فنون الحياة. فصارت فنوناً تصور المجد والسياسة وتصور الفرح والغضب، وتدغدغ عواطف الأجواد والولاة والخلفاء، وتحرك مشاعر الحب الكامن في النفوس، وتستنهض العواطف المشغولة باللهو وضروب الجمال، وتصور الحرمان والبؤس والظلم الاجتماعي، وتهجو غضباً وتمدح رضاً وتحثُّ على الجهاد وتدافع عن المذهب الديني والسياسي، فأصبح الشعر باختصار صورة للحياة الثائرة الملتهبة عند بعض الفئات والفرق كما أصبح صورة للحياة الهادئة المنعمة المطمئنة عند فئات أخرى. وكاد يتميز كل شاعر بمذهب خاص يحسنه ويظهر بهذا المذهب براعته ويسير معه في مذهبه عدد من الشعراء فيصبح

عندئذ مدرسة لها أتباع ومريدون وجمهور متفرج. فعلى سبيل المثال، مدرسة النقائض نضجت على يدي شاعرين عظيمين وتكوّن لها جمهور كبير من المحبين لهذا الفن.

ومدرسة الغزل الصريح والعذري تميزت بشعرائها ومريديها وجمهورها الخاص، قاد الفريق الأول عمر بن أبي ربيعة دون منازع فَعُدَّ رأساً لها وكوّن له مذهباً فنياً عرف به دون سواه، وتنازع قيادة الفريق الثاني عدد من الشعراء الكبار أتى في مقدمتهم جميل بن معمر ومجنون ليلى قيس بن الملوح وغيرهم كثير ممن سار على مذهبهم.

وتشكلت الطبيعة حية تنبض فيها الروح مملوءة بالحركة لدى شاعر الطبيعة ذي الرمة، رسم ما في الصحراء من واقع، وجسد خياله حيواناتها ومياهها وجبالها ورمالها، ولوّن الطبيعة التي عرفها في تقلبات أحوالها فصوّرها مخضرّة ممرعة في الربيع قاسية باردة مخيفة في الشتاء ملتهبة محرقة في الصيف، ثم أحسن تصوير انعكاس هذا المناخ ودوارج الريح ومور العواصف وهطول الغيث وصواعق السحب ووميض البرق على حياة ساكنيها من حيوان وإنسان.

فتميز له مذهب عرف به وتفرد بالجودة فيه عمّن سواه ممن طرق هذا الفن، ومثل هذا في تميزه في فنه وإحسانه له كان الكميت متميزاً في مذهب آخر بناه على الجدل المنطقي والاحتجاج المذهبي وسخر الشعر لمطلب سياسي فأحسن الدعاية وأجاد وسائل الإقناع وتحول الشعر على لسانه إلى جدل عقلي مفحم قائم على الربط بين حاجة العقل وبواعث العاطفة فكان لمذهبه الشعري تميزٌ عرف به وتبعه فيه آخرون كانوا يتخذونه قدورة ومثالاً يحتذونه، فأصبح بذلك مدرسة قائمة المعالم.

وما قيل عن هؤلاء يقال عن عشرات غيرهم من شعراء المدح وطلاب الجدة ومهتبلي المناسبات وأهل العصبية ورواد الغنيمة.

وبالرغم من تميز هذه الفنون واكتمالها في عصر بني أمية⁽¹⁾ بحيث أصبح كمال المذهب الفني معزواً إلى شاعر بعينه أو عدد من الشعراء⁽²⁾ إلا أن الثابت لدى المهتمين بالدراسات الأدبية أن هذه الفنون لها بدايات وأصول موجودة مطروقة فيما سبق من العصور منذ الجاهلية وأنها معروفة لدى الناس، وأن الذي طرأ عليها إنما هو تطور وحسب.

وإذا كان للشعراء في عصر بني أمية من فضل فإنّما هو فضل الرقي بها والوصول بها إلى درجة الكمال الفني، فالنقض في الشعر يعود تأرخه إلى بدايات الشعر الأولى ويأتي على لسان امرىء القيس وعبيد ابن الأبرص قال امرؤ القيس⁽³⁾.

يَا لَهْفَ هِنْدٍ إذْ خَطِئْنَ كَاهِلاً ... تاللهِ لا يَذْهَبُ شَيْخِي باطلاً
حتى أبيرَ مالكاً وكاهلاً ... القاتلينَ الملكَ الحُلاحلا
خَيْرَ مَعَدٍ حسباً ونَائلاً ... وخيرَهُمْ قد عَلِمُوا شَمَائِلا

فينقض عبيد بن الأبرص

- يَاذَا المُخَوِّفَنَا بِقَتْ ... لِ أَبِيْهِ إذْلاَلاً وَحَيْنَا
- أزْعَمْتَ أنَّكَ قد قَتَلْ ... تَ سَرَاتِنَا كَذِباً وَمَيْنَا
- هَلاَّ على حِجْرِ بنِ أمِ ... قِطَامِ تَبْكِي لا عَلَيْنَا

والغزل بشقيه الصريح والعذري عرف مع بداية الشعر العربي في الجاهلية (٤) وَقُلْ مثل ذلك عن بقية الفنون الشعرية:

لكن الشعر في عهد بني أمية لم يخلُ من جديد حادث متميز بجدته لا نجد له مشابهاً في أصول الشعر الجاهلي ولا في شعر صدر الإسلام. هذا الجديد جاء متمثلاً على لسان الشاعر مسكين الدارمي عندما طالب بنبذ الشطط في الغيرة على المرأة فانفرد برأيه وحمل وحده عبء التصريح بموقفه الرافض لمغالاة بعض العرب في الغيرة، مخالفاً إيّاهم فيما يعدُّونه من كمال المروءة، معلنا أن الغيرة وَهْمٌ كبير في ذهن الرجل الغيور لا يمكن أن يضمن الحماية الكافية للمرأة.

وقد جاءت هذه الظاهرة في شعره خاصة وتميزت عنده لكنها بقيتْ عقيماً في نفسه لم تنتشر عند غيره من الشعراء ولم تنتقل إلى منهج الشعر بعد ذلك.

ودراسة هذه الظاهرة في شعر الدارمي ستقود إلى إطلالة على معنى الغيرة عند العرب ومكانها في التقاليد العربية وفي الشعر العربي، ثم بعد ذلك النظر ملياً في رأي الشاعر فيها وبعد ذلك التعليل الممكن للموقف الذي أظهره مخالفاً فيه من عاصره من الناس ولم يجاره فيه أحد ممن لحق به بعد ذلك.

الغيرة:

الغيرة مصدر من قولك غار الرجل على أهله، والمرأة على بعلها تغار غيرة، والغيرة هي الحميّة والأنفة (٥). وأقرب حميّة الرجل أن يغارَ على محارمه وزوجته (٦) وأن يفتخرَ بذلك ويظهرَه في الناس وقد اشتطت العرب في الغيرة ومدحوا بها وفخروا بشدتها على المحارم وعُرف منهم الغُيُرُ الذين كانت

لغيرتهم قصص أشبه بالخيال ومن هؤلاء عَقِيْلُ بنُ عُلَّفَةُ المرِّي الذي كان معاصراً لمسكين الدارمي وقد ضرب بغيرته المثل (٧) وكان أحد نماذج التطرف والمبالغة الممقوتة ولشدة شططه في الغيرة كان يفضل موت البنت على حياتها ويجعل القبر أكرم الأصهار مع أن أصهاره خلفاء بني أمية وسادات قريش لكن القبر يظل مفضلاً عليهم كما يقول:

-إنِّي وإنْ سِيْقَ لي .المَهْرُ ، أَلْفٌ وَعِبْدَانٌ وَذَوْدٌ عَشْرُ-
أَحَبُ أَصْهَارِي إليَّ القَبْرُ (٨)

وإذا كان الإسلام قد حال بين عقيل وما يريد فقد وجل الجوعَ والعُرْيَ سببين معقولين يمكن أن يحولا بين المرأة والرجل في رأيه فإذا أراد سفراً فسئل عمَّن يخلف على أهله وأين غَيْرَتُه قال: أخلف معهم حافظين، الجوْعَ والعُرْيَ، أجيعهن فلا يمرحن وأعريهن فلا يبرحن (٩) وكان لايرى الرجل يحدث المرأة من أهله إلا أوقع به أشد العقاب (١٠). هذا في الإسلام الذي حفظ للإنسان الحق والكرامة أما في الجاهلية فكانت المرأة موضع شك الرجل وموطن ريبته وقد وصفها الحارث بن عمرو بقوله:

-كُلُّ أُنثَى وَإِنْ بَدَا لَكَ منها أَيَةُ الحبِ حُبُّهَا خيتعور
-إنَّ مَنْ غرَّه النساء بِوُدٍ... بَعْدَ هَذَا لجاهلٌ مَغْرُوْرٌ (١١)

ومن أمثالهم الدالة على شدة غيرتهم «كُلُّ شَيْءٍ مَهَهٌ مَا خَلاَ النِّساء وَذِكْرُهُنَّ» أي أن الرجل يحتمل كل شيء حتى يأتي ذكر حرمه فيمتعض حينئذ، فلا يحتمله (١٢) وقد جرّ الشطط في الغيرة إلى أقبح عادة عرفت عند العرب وهي وأد البناتِ وقد ذكر المفسرون والمؤرخون أنَّ من أسباب وأد البنات عند العرب الغيرة عليهن والخوف من أن يسبين فتنتهك حرماتهن أو أنْ يزوَّجْنَ بغير أكفاء (١٣) وقالوا في سبب ذلك أن المشمرج اليشكري أغار على بني سعد فسبى منهم نساءً واستاق أموالاً وكان في النساء امرأةٌ خالها قيس بن عاصم الذي وصفه الرسول بسيد أهل الوبر، اصطفاها المشمرج لنفسه فخيَّرها، فاختارتْ البقاء معه عند العودة مع قيس فانصرف قيس ووأد كل بنت ولدت له (١٤) وقبل قيس بن عاصم ذكر أن المهلهل بن ربيعة أمر زوجته حين ولدت له بنتاً أن تقتلها، فأمرت خادماً لها أن تغيبها عندها ثم بدا له فأمر بإحسان تربيتها فكبرت حتى تزوجت.

وليس غرض هذا البحث التعرض لقضية الوأد عند العرب إنما الغرض تأكيد أن من أسبابه غيرة العربي وخوفه من العار حتى إنَّ بعض المصادر قد صرحت بأن قيس بن عاصم المنقري ما كان يئد إلا خشية سوء الأحدوثة والفضيحة في البنات (٦).

أمَّا القرآن فقد صرح بسبب واحد لله للقتل وهو الخوف من الفقر فقال تعالى: (وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إمْلاَقٍ، نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ، وإيَّاكُمْ)(١٧) وقال تعالى: (وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ أمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وإيَّاهُمْ)(١٨)

والولد يشمل الذكر والأنثى والأيتان السابقتان صرحتا بأن السبب هو خوف الفقر، لكنَّ صرحت آيتان في القرآن بقتل الأنثى من الولد خاصة في قوله تعالى (وإذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت)(١٩) وقوله: (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودة وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب)(٢٠) والإشارة في هاتين الآيتين. إلى الأنثى خاصة دون الذكر والدافع لوأدها خفي ولم يقترن بالفقر وليس ثمة من سبب لقتل الذرية بعد الفقر إلا خوف العار وهذا ناتج عن الغيرة ولذا خصت الأنثى به.

وإذا كان القرآن قد نص في بعض الآيات على سبب واحد هو الفقر. فإن الغيرة قد تكون من الأسباب التي لم ينص عليها القرآن لأن قيس بن عاصم المنقري والمهلهل بن ربيعة كانا يئدان مع غناهما ووفرت مالِها وكفالتهما للخدم أثناء الأمر بالوأد. كما في قصة المهلهل.

أما المؤرخون فمجمعون على أن العرب خَصَّت البنات بالوأد دون البنين، وكلا الجنسين يحتاجان إلى الطعام(٢١) . وفي عدم التصريح بالسبب في الآيتين الأخيرتين ما يجعل احتمال القتل من أجل الغيرة قائماً، أما في الآيتين الأوليين فالغرض من الإشارة تقبيح قتل الأولاد خوف الفقر وفي ذلك ضعف اعتماد القاتلين على الله وقد وبّخهم بالعجز عن قوت أولادهم فعيَّرهم بذلك بينما تعد الغيرة من مكارم الأخلاق التي لا يذمُّ الانسان بها، والقرآن ساق ذلك في سياق الذَّمِ ولم يجعل الغيرة من أسباب القتل التي يُعَيَّرُ بها المشركون.

وهنا يمكن أن يقال بأن للغيرة معنى عاماً يدخل فيه ما ذكر. أمَّا من يستقرىء الشعر العربي فسيجد أن من دوافع استماتة الأبطال دون الحمى وإبراز صفات البطولة شعور الرجل بالغيرة على النساء عامة. فالغيرة عنده هي الدافع على القتال والتضحية بالنفس حتى لا تمسَّ المحارمُ بقول زهير بن مسعود الضبي:

- فَخَيْرٌ نَحْنُ عِنْدَ النأَسِ مِنْكُمْ ... إذَا الدَّاعِي المُثَوِّبُ قَالَ يَالاَ –
- ولَمْ تَثِقِ العَوَاِئقُ مِنْ غَيُوْرٍ ... بِغَيْرَتِهِ وَخَلَّيْنَ الحِجَالاَ(٢٢)

وحمايةُ المرأةِ والغيرة عليها حديث مكرور عند الشعراء مقرون بالحميّة والشجاعة يقول كثيّر:

ـ وَنَحْنُ غَيَارَى دَوْنَ كُلِّ خَرِيْدَةٍ تُكُنُ أَدِيماً وَاضِحاً وَشَوىً عَبْلاً
ـ وَنَحْمِي إِذَا اشْتَدَّ الهِيَاجُ ... نِسَاءَنَا وَلَمْ يَرَ ذُو عَيْنٍ لِنِسْوَتِنَا حِجْلاً(٢٣)

أما عمر بن لجأ التيمي فيربط جبن أعدائه بقلة غيرتهم على نسائهم ويجعل ذلك سبباً للنكاية بهم في حين يبرز حال قومه ويذكر غيرتهم على النِّسَاء ليرى البون الشاسع بين الحيين فيقول:

ـ لَقَدْ ذَعَرْنَا قَدِيْماً فِي نِسَائِكُمُ ... وَلَمْ تَغَارُوا وَلَمْ تُسْتَنْكَرْ الذُّعُرْ(٢٤)

ويصور قومه على خلاف أعدائه فيقول:

ـ إِذَا أَغَارَ شُمَيْطٌ نَحْوَ نِسْوَتِنَا ... غِرْنَا عَلَيْهِنَّ إِنَّا مَعْشَرٌ غُيُرُ(٢٥)

ويقول:

- فَلَوْ غِرْتُمُ يَوْمَ الحَرَائِرِ لَمْ تُرِحْ ... مَعَ القُوْمِ أَبْكَارُ النِّسَاء وعُوْنُها(٢٦)

كما يقول أيضاً:

- نَغَارُ عَلَيْهَا غَيْرَةً مَضُرِيَّةً ... إِذَا ما انْتَضَيْنَا المِشْرَفِيَّ المُهَنَّدَا(٢٧)

وإذا ذهبنا نتتبع الشعراء في هذا المضمار وجدنا زيد بن الطَّثْرِيَّة يذكر هذه المعاني أكثر من مرة(٢٨) ، أما جرير فقد حام حول موضوع الغيرة على النساء وجمع بينها وبين الحميّة في القتال كثيراً في شعره. كما مدح ذو الرمة ولاة بني أمية بالحميّة العربية وسماها غيرة وجعل لها معنى شاملاً حين يقول:

- يَغَارُ بِلالٌ غَيْرَةً عَرَبِيَّةً ... عَلَى العَرَبِيَّاتِ الْمُقِيْمَاتِ بالمِصْرِ(٢٩)

فلم تعد الغيرة مقصورة على المحارم وأصبحت محمدة يقوم بها حامي الذمار والحافظ للذمم. ولم يخل ديوان شاعر من ذكر لهذه المعاني سواء كان ذلك في سبيل المدح أو الفخر بنفس الشاعر وقومه أو في سبيل الذم لأعدائه والانتقاص من شهامتهم.

أما الغيرة في معناها الخاص المرتبط بالعلاقة المحددة بين الرجل والمرأة فقد صوَّرها العشاق الذين يختلسون العيون ويهتبلون الغرة والغفلة وبكوا منها كما بكى منها الذين يودون ألاَّ توصد الأبوابُ في وجه علائقهم فتحدثوا عن شدة الغيور وجعلوا الغيرة موضوعاً يدور حوله شعر العشاق الذين أحسُّوا أنها تقطع صلاتهم، وتحول دون رغباتهم وأنها فوق قدرة إحتمالهم ، وأصبح الغيور في نظرهم منغصاً لمشاعر الوفاء، وانقسم العشاق لذلك إلى فئتين فئة تصور خوف المرأة من عين الغيور وحذرها من الوقوع في

قبضته وهي في خلوة مع رجل أجنبي على نحو قول بعضهم:

- وَلَسْتُ وإِنْ أُوعِدْتُ فيهَا بِمُنْتَهٍ... وإنْ أُوْقِدَتْ نَارٌ فَشَبَّ وَقُودُهَا(٣٦)

على أن الموت هو العقوبة المقدرة للعاشقين إن وجدا متلبسين بشيء يسيء إلى الشرف والكرامة أو يخدش حرمة الغيور بقول الشاعر:

- فَلا يَجِدَنَّكَ الأَعْدَاءُ عِنْدِي... فَتَثْكُلُنِي وإِيَّاكَ الثُّكُوْلُ(٣٧)

أما الفئة الثانية من الشعراء فلم تبخل علينا بنقل الشعور الذي يثيره العشاق وتثيره المرأة في نفس الغيور، ورد الفعل لديه حين تأخذه الوساوس وتتحرك في نفسه الشكوك فيجا. الألم والريبة والشك المظلم في نفسه، فيحاصر المرأة ويجعل عليها حجاباً دون الناس خوف العار كما صور عبيدالله بن قيس الرقيات بقوله:

- لَهَا بَعْلٌ غَيُوْرٌ قَا... عِدٌ بِالبَابِ يَحْجُبُهَا(٣٨)
- يَرَاني هَكَذا أَمْشِي... فَيُوعِدُهَا وَيَضْرِبُهَا -

أو قول الآخر:

- أَلاَ يَحْبِسُ الشَّيْخُ الغَيُوْرُ بَنَاتَهُ... مَخَافَةَ جَنَبِيٍّ الشَّمَائِلِ مُخْتَالِ(٣٩)

كما صوروا الألم الخفي والبغض الدفين لدى الغيور الذي لا يجد منه متنفساً يعينه على الراحة ويبعث في نفسه الإطمئنان يقول الشاعر واصفاً ذلك:

- وَظَلَّ الغَيُوْرُ آنِفاً بِبَنَانِهِ... كَمَا عَضَّ يِرْذُونٌ عَلَى الفَأْسِ جَامِحُ(٤٠)
- كئيباً يَرُدَّ اللَّهْفَتَيْنِ لأُمِّهِ... وَقَدْ مَسَّهُ مِنَّا وَمِنْهُنَّ نَاطِحُ -

وقد تدفع الغيرة صاحبها إلى تجريدٍ عصاه على المرأة وتهديدها بالقتل، فيقع هذا الحال موقع الألم في قلب المحب فيصور شعوره على نحو قول جميل بن معمر:

- أَمَضْرُوبَةٌ لَيْلَى عَلَى أَنْ أَزُوْرُهَا... وَمُتَّخِذٌ ذَنْباً لَهَا أَنْ تَرَانِيَا(٤١)

أو قوله:

- إِذَا جِئْتُها يَوماً مِنَ الدهْرِ زَائِراً... تَعَرَّضَ مَنْفُوضَ اليَدَيْنِ صَدُودُ(٤٢)

أمَّا ذو الرمة فيجعل الغيور قتيل الهمّ والكمد عاجزاً عن معرفة ما يراود نفسه، فيموت متألماً مما يعاني في خلجاته من شدة الغيرة في حين أنه يحاول ستر ما يقاسي وطيَّة عن الناظرين يقول:

- بَكَى زَوْجُ مَيٍّ أَنْ أُنِيخَتْ قَلَائِصٌ ... إلى بَيْتِ مَيٍ آخِرَ اللَّيْلِ طُلَّحُ(٤٣)
- مُتْ كَمَداً يا بَعْلَ مَيٍّ فَإِنَّها ... قُلُوبٌ لِمَيٍ أَمَّنُ الغَيْبِ نُصَّحُ -

وقد يسمع العاشق ما يكره من المرأة التي أحب فلا يغير ذلك من شعوره نحوها شيئاً لأنه يحيل ذلك إلى غيرة الغيور ويجعله مسؤولاً عنه فيقابل ما تظهر من إساءة بالعفو كما يقول كثيِّر:

- يُكَلِّفُهَا الغَيْرَانُ شَتْمي وَمَا بِهَا ... هَوَانِي وَلكِنْ لِلْمَلِيْكِ استَذَلَّتِ(٤٤)
- هَنِيئاً مَرِيئاً غَيْرَ دَاءِ مُخَامِرٍ ... لِعَزَّةَ مِنْ أَعْرَاضِنَا ما اسْتَحَلَّتِ

وقد بلغ الشطط في الغيرة حداً بعيداً، في ذلك العصر، وأدرك معاوية رضي الله عنه شطط الناس في زمانه في الغيرة والمبالغة غير المحمودة فيها فقال كلمته المشهورة: ثلاث خصال من السؤدد وذكر منهن عدم الشطط في الغيرة، وماكان ذلك منه إلا محاولة لردع الناس عن الاستمرار في المبالغة فيها والحذر منها(٤٥).

مسكين الدارمي والغيرة:

بالرجوع إلى استقراء كتب التراجم والأدب وشواهد الشعر ومظانه، والأحداث العظيمة التي تألق فيها شعره لا تجدها تضن بذكر اسمه ونسبه(٤٦) وشاعريته وقد يتراءى للباحث المتسرع أن في هذه الكتب مادة غزيرة وأخباراً كثيرة عنه، ويخيل إليه أن شهرة الشاعر ومشاركته في أحداث عصره تحله محلاً بارزاً عند مؤرخي الأدب ومتتبعي الأحداث ويسلمه تردد ذلك في أغلب المراجع إلى الظن بأن هذه الكتب لن تضن عليه بما يريد عن حياة الشاعر بجوانبها المختلفة، ولكنها في الواقع ضنينة بخيلة كل البخل أن أراد الباحث منها ما يسعف من جوانب حياته التي قد تكون وراء بعض الآراء الواردة في شعره فكل ما يجده لا يتجاوز نسبه واسمه وسبب تلقيبه «مسكيناً» ونتفنا تتعلق بأرومته وأبياتنا متناثرة من شعره يجدها هنا وهناك كما يجد فيها حديثاً مكروراً عن رثائه لزياد وترشيحه «يزيد» للخلافة وذكر الحكم في شعره هذه هي الموضوعات المكررة التي تناقلتها الكتب والتراجم والأخبار.

فالنقائض أشارت إليه عند استعراض بواعث المعركة الحامية التي اشتد أوارها بين فحلي تميم جرير والفرزدق، كما ذكرت مهاجاته للفرزدق(٤٦) أما ابن سلام في طبقات فحول الشعراء فقد أهمله ولم

يجعل له مكاناً مع الفحول بالرغم من ذكر مهاجاته للفرزدق في معرض حديثه عن الأخير واستعراض أبياته التي هجا الفرزدق بها ولم يطل الحديث عنه(٤٧) أما الطبري في تاريخه فيذكر حربه للخوارج مع أبي الرواغ، ورثاءه لزيادٍ ومهاجاته للفرزدق وحربه للمختار بن عبيد مع أشراف الكوفة(٤٨) بينما يشير البلاذري في أنساب الأشراف إلى مسكين الدارمي وقصة قتاله الخوارج مع جنود بني أمية، ويورد بعض ما نسب إليه من رجز لم يضمه الديوان(٤٩). كما ترجم له من المتأخرين صاحب خزانة الأدب وذكر شيئاًمن شعره(٥٠) وفعل مثل ذلك عدد غير قليل من المؤلفين الذين نقلوا عن المصادر السابقة ومع كل ذلك فلولا ما جمع أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني من إيماءات متفرقة مبسطة عن جوانب مهمة في استكناه حياة الشاعر، واستقراء المؤثرات في بناء شخصيته لما تجرأ الباحث على الخوض في تعليل ظاهرة الغيرة عنده ولصرف النظر عن هذه الدراسة لقلة ما أوردت تلك الكتب من المعلومات.

قلنا أن الدارمي يشكل ظاهرة خاصة في مجال الغيرة وذلك بخروجه على المألوف وفلسفته لموقف لم نر له مثيلاً عند شعراء عصره ولا نشك أن الشطط في الغيرة بلغ أوجه في ذلك العصر فالشعراء المشهورون المعاصرون له كانوا في مواكبة الاتجاه العام نحو تأصيل الغيرة وعدم التسامح في أمرها، وشعرهم أوضح من أن يخفى على أحد، أما من عداهم من الشعراء فقد تتبع البحث دواوينهم ومجموعات أشعارهم ومنهم على سبيل المثال:

١ – سراقة البارقي.
٢ – المزرد بن ضرار.
٣ – توبة بن الحميِّر.
٤ – عبدالله بن الزَّبير.
٥ – القتال الكلابي.
٦ – يزيد بن مفرغ الحميري.

ووجد أن شعر هؤلاء كشعر الفحول خال من ظاهرة التسامح في الغيرة التي انفرد بها مسكين الدارمي مما جعل المقارنة بين شعره وشعر غيره من معاصريه أمراً غير وارد.

فكان لا بد من الرجوع إلى شعره خاصة والنظر فيه للتعرف على ميوله الفنية وبالتالي التعرف على البواعث التي جعلته يخالف غيره في مسألة تتصل بصميم الخلق العربي الأصيل.

شعره:

إذا عدنا إلى شعره وجدنا الذي وصل إلينا منه قليلاً، لم يتجاوز خمساً وخمسين قافية، أغلبها قطع كما يوجد فيما نسب إليه من شعر البيت والبيتان والثلاثة جاءت في ست وأربعين صفحة من الحجم المتوسط، جمعت من كتب اللغة والبلدان والأمثال(٥١) ومجمل ما حفظ له من شعر كان يتصف بالحكمة التي استأثرت بحظ وافر من حجم الديوان(٥٢) كما يتضمن الأمثال الرصينة إلى جانب ابتعاده في شعره عن الطيش والسفه وميله إلى الواقعية والتروي، وقد أخذ نفسه بأسباب الكمال كما في قوله:

- أَعُفُّ لَدَى عُسْرِي وَأُبْدِي تَجَمُّلاً ... وَلا خَيْرَ فِيمَنْ لاَ يَعُفُّ لَدَى العُسْرِ(٥٣)
- وإنِّي لأَسْتَحْيِي إذَا كُنْتُ مُعْسِراً ... صَدِيقِي وَإِخْوانِي بِأَنْ يَعْلَمُوا فَقْرِي

أو قوله:

- إذَا لَمْ تَجِدْ بُداً مِنْ الأَمْرِ فَأْتِهِ ... رَحِيْبَ الذِّرَاعِ لاَ تَضِيقَنْ بِهِ صَدْرَا(٥٤)
- وَلاَ تَـأْمَنِ الخِلاَّنَ إلاَّ أَقَـلَّهُمْ ... عَلَيْكَ إِذَا كَانَتْ صَدَاقَتُهُم مَكْرَا

ومما يدل على ما يتمتع به الشاعر من وعي وصدق مع نفسه ومعرفة لأحوال الناس قوله:

- اتَّقِ الأَحْمَقَ أَنْ تَصْحَبَهُ ... إنَّمَا الأَحْمَقُ كَالثَّوْبِ الخَلِقْ(٥٥)
- كُلَّما رَقَّعْتَ مِنْهُ جَانِباً ... حَرَّكَتْهُ الرِيْحُ وَهْناً فَانْخَرَقْ،،، –

وقوله أيضاً:

- لَيْسَتْ الأَحْلاَمُ فِيْ حَالَ الرِضَا ... إنَّمَا الأَحْلاَمُ فِيْ حَالِ الغَضَبْ(٥٦)

وقوله: (٥٧) مكرر،

- وإني امرُؤٌ مِنِّي الحَيَاءُ الذي تَرَى ... أَعِيْشُ بِأَخْلاَقٍ قَلِيْلٍ خِدَاعُها
- أُوَاخِي رِجَالاً لَسْتُ أُطْلِعُ بَعْضَهُمْ ... عَلَى سِرِّ بَعْضٍ غَيْرَ أَنِّي جِمَاعُها
- يَظَلُّونَ شَتى في البِلاَدِ وسِرُّهُم ... إلى صَخْرَةٍ أَعْيَى الرِجَالَ انْصِدَاعُها
- لِكُلِّ امْرِيءٍ شِعْبٌ مِنْ القَلْبِ فَارِغٌ ... وَمَوْضِعُ نَجْوَى لا يُرَامُ اطِّلاَعُها

وقد لا يكون الدارمي وحده متفرداً بكثرة طرح أبيات الحكمة إلا أنَّ حكمته وتأمله قادته إلى النظر

في ظاهرة الغيرة ووصل إلى قناعة بعدم جدوى الشطط فيها فرسم بذلك منهجاً جديداً في فن الشعر لمسه بلطف أبو الفرج الأصفهاني دون أن يطيل الوقوف عنده فقال في كتابه الأغاني بسند طويل يرفعه إلى أبي عبيدة جاء فيه قوله: أخبرني أحمد بن عبيدالله بن عمار قال: حدثني محمود بن داؤد، عن أبي عكرمة عامر بن عمران، عن مسعود بن بشر عن أبي عبيدة أنه سمعه يقول: أشعر ما قيل في الغيرة قول مسكين الدارمي:

- أَلاَ أَيُّـها الـغَـائِرُ الـمُسْتَشِيْـ ... ـطُ فِـيْـمَ تَـغَـارُ إذَا لَـمْ تُـغَرْ(٥٨)

والحقيقة أنها لم تكن هذه القطعة فقط التي حملت هذا المعنى الذي أشار إليه أبو الفرج بل إنَّ في شعره مجموعةً صالحةً تناولتْ الغرض نفسه الذي أعجب أبا عبيدة وهو غرض لم يوجد إلا عنده خاصة فكان علينا أن نقفَ عند هذه الإشارة ونتفحص شعره لعل البحث يقود إلى سبب مقنع دفعه إلى التفرد عن معاصريه مصمماً على إظهار بعض المعاني التي قد تواجه بعدم الاستجابة من الناس.

لقد طرق الشاعر فنون الشعر في عصره إلا الغزل إذ خلا ديوانه منه كما خلا من وصف المرأة والحديث عنها أو إليها ونزّه نفسه عن التقرب إلى كل ما يبعث الشك والريبة وابتعد عن مجالسة النساء ومحادثتهن التي قد تجرّ إلى ما لا يليق بشيمته فصور ذلك الموقف بقوله:

لا آخُـذُ الصِّـبْـيَـانَ أَلْـثُـمُـهُـمْ ... والأَمْـرُ قَـدْ يُـغْـرِي بِـهِ الأَمْـرُ(٥٩)

أو قوله:

ولا أُرِي صَـاحِـبِـي هِـجْرَانَ زَوْجَتِـهِ ... لاَ أُحَـدِّثُـهَـا السَّوْآتِ إنْ خَـرَجَا(٦٠)

وقوله أيضاً:

وإني سَـأَلْـقَى الله لَـمْ أَرْمِ حُـرَّةً ... وَلَـمْ تَـتَـمَـنَّ يَـوْمَ سِرٍّ فَـخِـنْـتُـها(٦١)

أما ما سوى ذلك فلم يذكر عن المرأة وعلاقته بها شيئاً، لكن الحديث عنها جاء عندما تحدث عن الغيرة وعن موقفه منها فكان منه ما ألمح إليه البحثُ فيما مضى. حيث أصبح سمةً بارزةً في شعره ولعل الأبيات التاليةَ تدلل على ما لديه من رأي، يقول:

مَـا أَحْسَنَ الـغَـيْـرَةَ فِي حِـيْـنِـهَا ... وَأَقْـبَـحَ الـغَـيْـرَةَ في كُـلِّ حِيْـنْ(٦٢)
مَنْ لَـمْ يَـزَلْ مُـتَّـهِـماً عِـرْسَـهُ ... مُـنَـاصِـباً فِـيْـهَا لِـوَهْمِ الظُّـنُوْنْ(٦٣)

يَوشِكُ أَنْ يُغْرِيَهَا بِالذي ... يَخَافُ أَوْ يَنْصِبَهَا لِلعُيُوْن
حَسْبُكَ مِنْ تَحْصِيْنِهَا ضَمُّهَا ... مِنْكَ إلى خُلْقٍ كَرِيمٍ وَدِيْنْ
لا تَظْهَرَنْ مِنْكَ عَلَى عَوْرَةٍ ... فَيَتْبَعُ المَقْرُونُ حَبْلَ القَرِيْنْ

تعد هذه الأبيات تمهيداً وعرضاً واقعياً لما سوف يعرض الشاعر من رأي صريح في الغيرة، فهو في البداية لا ينكر أن يكون الرجل غيوراً ولكن في الموضع المناسب للغيرة بحيث لا يسرف في الشك ولا يستبد به الوسواس، مخافة أن يكون للتطرف والمبالغة أثار عكسية على سلوك المرأة لكثرة سماعها كلمات التحذير والتهديد والتهجم موحية إليها بعدم الثقة في سلوكها مما تعده خدشاً لكرامتها وانتقاصاً لشخصيتها.

وقد يبعث تحذيره إيّاها زعزعة الثقة في نفسها فتستهوي الميل إلى ما نهيت عنه ويكون الرجل بذلك قد أغراها بما لم يكن من طباعها، أما إذا كانت ثقتها بنفسها أقوى من شكه النابع من الغيرة فقد يكون موقف الغيور دافعاً للناس الذين يتحدثون عنها ويجعلون الشك من الزوج والغيرة المفرطة نحو زوجته سبيلاً إلى الحديث عنها والتطلع إليها ومراقبة حركاتها وسكناتها فتصبح مجالاً للكلام وحبك القصص، إذن فالأمثل في رأي الشاعر هو الابتعاد عن الريبة وترك الإفراط في الغيرة وأن يبدأ الرجل الغيور بالغيرة على نفسه هو، فلا يلوّث سلوكه وتصرفاته بما يعرّيه أمام زوجه ويكشف لها عن سوء وضعف في ميوله، فتتأثر بحكم الصلة بما حولها وتنتقل العدوى إليها وعليه أن يبتعد عن الريبة ويهجر مواطن الشك فيصبح مستقر النفس راضي البال، ولا أخطر ـ في رأي الدارمي ـ على سلوك الزوجة من سلوك الزوج إذا كان يغار عليها ويتتبع هناتها ثم لا يمتنع هو عن منكر ولا يقلع عن سلوك قبيح يفضي إلى الإنحراف. إنَّ ذلك في رأيه جدير بسوق الزوجة إلى مواقع الريبة اقتداء بالقرين. وهذه القطعة التي مرت قد تكون من أوائل شعره في موضوع الغيرة إذ نجد فيها التمهيد المنطقي للفكرة التي يريد الوصول إليها، فهو لم يرفع العصا من أول وهلة في وجه الغيور كما لم يذم الغيرة في حد ذاتها وأثنى عليها في وقتها وبدأ وكأنّه يؤطي لأحكام ستكون أكثر صراحة على نحو قوله:

أَلا أَيُّهَا الغَائِرُ المُسْتَشِيْـ ... ـطُ عَلامَ تَغَارُ إذَا لَمْ تُغَرْ(٦٤)
فَمَا خَيْرُ عِرْسٍ إذَا خِفْتَهَا ... وَمَا خَيْرُ بَيْتٍ إذَا لَمْ يُزَرْ؟
تَغَارُ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَنْظُرُوا ... وَهَلْ يَفْتَتِنُ الصَّالِحَاتِ النَّظَرْ؟
فَإنِّي سَأُخْلِي لَهَا بَيْتَهَا ... فَتَحْفَظُ في نَفْسِهَا أَوْ تَذَرْ

إنْ اللهُ لَـمْ يُـعـطِـهِ وُدَّهـا ••• فَـلَـنْ يُـعْـطِـي الوُدَّ سَوْطٌ مُـمِـرْ
يَـكَـادُ يُـقَـطِّـعُ أَضْلاَعَـهُ ••• إذَا مـا رَأَى زَائـراً أو نَـفَـرْ
فَـمَـنْ ذَا يُـرَاعِـيْ لَـهُ عِـرْسَـهُ ••• إذَا ضَـرَّهُ وَالـمَـطِـيَّ السَّـفَـرْ

هذه النص يعد تصعيداً للفكرة التي وَطَّأَ لها في الأبيات السابقة من خلال ما تأكد له من واقع الحياة التي يعيشها ويشاهد تجاربها فنبا عن مثاليات الشعراء وتصوراتهم، ونحا منحى التأمل وبدأ يرسم الحياة كما هي أو أقرب ما تكون إلى طبيعة الأشياء التي يعيشها الناس ويشاهدونها تمر أمام أنظارهم فضرب المثل عن الواقع مصوراً أن غيرة الغيور وإن أبعدت عن المرأة كل سوء في حضرته وإقامته معها، فلن تحميها عند غيبته عنها، وقد تكون أقل غيبة للرجل عن أهله يوماً أو بعض اليوم حين يكون في سائمته أو في صيده أو في ورده وصدوره إن البيت سيخلو لها لا محالة وإذا لم تجد من نفسها حارساً مانعاً فإنّ إقامة الزوج ورصده لحركاتها لن يدوما ولن يستمرا في كل حال. إنّ الأمر في رأي الشاعر أهون من كل ما تجيش به نفس الغيور وأسهل مما تصور له أوهامه ووساوسه، إنّ مسكين واقعي في غيرته يريد أن يبني الاحترام والثقة في نفس الزوجين فتكون للزوجة الحرية والخيار ويجعل المحافظة على نفسها من شأنها هي ولها الحق في أن تسلك المسلك الذي يرضي ضميرها في مشهده وفي غيابه عنها، وهو لهذا السبب مصمم على أن يخلي لها بيتها ولا يحول بينها وبين نفسها، فالنفس نفسها والعرض عرضها والكرامة كرامتها فإن شاءت حفظت وإن شاءت ضيعت، لكن الشاعر لم يرد أن تكون هذه قناعة شخصية ولكنه أعلن ذلك أمام الناس وعرضه مدللاً على صحة ما يذهب إليه من الأمر فالحياة في رأيه لا تعين الغيور على تحقيق ما يريد.

-وإِنِّي سَـأُخْـلِـي لَـهَـا بَـيْـتَـهَـا ••• فَـتَـحْـفَـظُ فِي نَـفْـسِهَا أَوْ تَـذَرْ-
-فَـمَـنْ ذَا يُـرَاعِـي لَـهُ عِـرْسَـهُ ••• إذَا ضَـرَّهُ وَالمَطِـيَّ السَّـفَـرْ-

وقد توفرت لديه قناعة لم تكن متوفرة ولا ظاهرة عند غيره من معاصريه من الشعراء ولا عند المجتمع الذي عاش فيه ولم يدرك مثل هذه القناعة غير المتأخرين بقرون طويلة، فالشاعر لا يقرّ عزل المرأة وإغلاق الأبواب عليها ولا يرى في ذلك نفعاً ويرى أن تكون الغيرة مغروسة في نفس المرأة وأن تربى عليها حتى تقوى عندها المناعة الذاتية والنفس الأبية الكريمة، كما يعتقد أن خروج المرأة ليس معناه التبرج، إنما هو ضرورة الحياة بالإضافة إلى أن التزاور والاتصال بين الناس نابع من فطرتهم البشرية ولن تقطعه الغيرة:

-تَـغَـارُ عَـلَى الـنَّـاسِ أَنْ يَـنْـظُـرُوا ••• وَهَـلْ يَـفْـتُـنُ الصَّـالِـحَاتِ النَّـظَـرْ-

هذه القناعة التي ظهرت عنده في القرن الأول للهجرة لم تظهر إلا في العصر الحديث عندما هبت رياح الدعوة إلى السفور والاختلاط.

وتصدى الشعراء والكتاب للدفاع عن ذلك، وجاء الشعر ليعيد رأي مسكين بعد ألف وثلاثمائة عام في مثل هذا البيت:

-إذَا لَـمْ يَصُنِ الأَدَبُ الـغَوَانِي ... فَمَا يُغْنِي الدِّمَقْسُ وَلاَ الحَرِيْرُ-

وإذا كنا نعد القطعة الأولى التي وردت في صدر هذا البحث ممثلة للموقف المتأمل الذي يريد الشاعر عرضه نحو هذا العرف والتقليد وفيها حبذ الغيرة في موقف وفي حال كما قبحها وقبح الأقبال عليها في حال آخر وجعل مردَّ ذلك كله ومحوره النفس الإنسانية التي جبلت على التمرد والعصيان على الإكراه والتسلط فإنه حاول أن يجعل للرجل نصيباً معقولاً في هذا المضمار ولم يحمل المرأة كل الأخطاء التي كان المجتمع في عصره يلقيها على كاهلها ويخفف وقعها عن كاهل الرجل.

وقد كانت القصيدة الثانية خطاباً مباشراً صريحاً موجهاً إلى الغائر المستشيط كما يصفه موضحاً فيها صورة الخطأ في الاجتهاد وخطل الرأي الذي يذهب إليه ذلك الغائر المستشيط وأعلمه أن غيرته لن تحمى له زوجاً ولن تريح له بالاً وكان في رأيه مستنداً إلى طبيعة الحياة وواقعها الذي يعرفه الناس، فالواقع المعاش لا يسعف الرجل الحريص على حماية المرأة وعزلها عن الرجال ووصد الأبواب دونها إن لم يكن لها من ذاتها حارس أمين لا يغيب ولا يسافر.

ولم يترك الشاعر رأيه دون برهان فذكّر الغيور بما لا يستطع تجاهله وهو أن لزوم الرجل بيته يحرس عرسه مستحيلاً، فمن له إذن بمن يقوم على مهمة الحراسة إن ضرّه والمطي السفر كما يقول، ولم يدع المخاطب دون جواب وتوجيه فأخبره بوسائل الحماية الحقيقية التي تحفظ له كرامته في غيابه كما تحفظها له في حضرته وتكون هي الملازم الحصين المنيع للمرأة، ذلك هو شعورها بكرامتها وإن خلا لها البيت.

أما القطعة الثالثة فهي إكمال للفكرة التي بدأ بها، وبالرغم من أنها تحمل المعنى الذي حملته سابقتها الموجهة للغائر المستشيط إلا أن الضمير هذه المرّة يعود على الشاعر نفسه فهو يجعل من ذاته المخاطب والمتحدث ويعبر عن قناعة فيما يمكن أن يأتي أو يدع وإذا كان الدارمي قد وطّن نفسه على مواجهة الناس بحقيقة ما يعتقد صوابه فلا يهمه أن يصرح عن فكرة أعتقد أنها مما تستجيب له طبائع الناس وتتسق مع سلوك الحياة يقول في ذلك:

- وإني امرؤٌ لا آلفُ البَيْتَ قَاعِداً ... إلى جَنْبِ عِرْسِي لاَ أُفَارِقُهَا شِبْرا(٦٥)
- وَلاَ مُقْسِمٌ لاَ تَبْرَحُ الدَّهْرَ بيْتَهَا ... لأَجْعَلَهُ قَبْلَ المَمَاتِ لَهَا قَبْرَا
- إذَا هِيَ لَمْ تُحْصَنْ أَمَامَ فَتَائِهَا ... فَلَيْسَ يُنَجِّيْهَا بِنَائِي لَهَا قَصْرَا
- وَلَا حَامِلٌ ظَنِّي وَلاَ قَال قَائِلٌ ... عَلَى غَيْرَةٍ حَتَّى أُحِيْطَ بِهِ خُبْرَا
- وَهَبْنِي امْرُءاً رَاعَيْتُ مَا دُمْتُ شَاهِداً ... فَكَيْفَ إذَا مَا غِبْتُ عَنْ بِيْتِهَا شَهْرَا

مرت الأبيات التي لم نطلع على ما يماثلها في معناها فيا وقفنا عليه من الشعرالعربي، والدارمي في كل مرّة يقلب القول في موضع الغيرة محافظاً على جوهر فكرته حتى أصبح أكثر واقعية وأكثر مواجهة مع الناس فنقل الحديث من أسلوب الوعظ والنصح إلى ما لا يمكن غيره وحقق القناعة الذاتية وتحدث عن جوانب القضية التي يعالج أطرافها واتجه إلى نفسه متحدثاً وهو يريد أن يترك للسامع حرية الأخذ أو الرفض بما يعتقد أنه الصواب دون أن يفرض عليه أمراً يراه من خصوصياته فجعل القناعة الخاصة التي وصل إليها حقاً مشاعاً للناس عامة فأحسن عرض رأيه وجمع بين الصدق والإقناع.

- وَهَبْنِي إمْرَءاً رَاعَيْتُ مَا دُمْتُ شَاهِداً ... فَكَيْفَ إذَا سَارَ المَطِيُ بِنَا شَهْرَا

جنح الشاعر إلى واقعية الحياة وجعلها أقرب إلى قلوب الناس وذكرهم بأنه إذا كان المجتمع يعطي الرجل حق الحماية والردع لسلوك المرأة في كل الأحيان فإنَّ هذا الحق سيصبح ضائعاً عندما لا يجد الحامي بداً من الغيبة، وخطأ المعادلة في رأيه أن الأعراف والتقاليد الاجتماعية أعطت الرجل الحق مطلقاً في أن يحجر على المرأة ويحد من حريتها واتصالها بمن لا يأنس بهم ولا يأمن جانبهم كما أن العادات لم تجعل الرقيب على سلوك المرأة داخلياً كما يجب أن تكون وإنما جعلته خارجاً بعيداً عنها بالرغم من أنها صاحبة الشأن.

وهو لا يخالف الأعراف الاجتماعية في الغاية، ولكنه يخالفها في الوسيلة التي تحقق للمرأة الصون والعفة التي هي جوهر القضية، ورأيه أن تكون المناعة منطلقة من قناعة لدى المرأة بوجوب حفظ الأمانة وليست واقعاً تفرضه عليها عادات وتقاليد قد لا تحترم في كل الأحوال.

ولا نريد أن ننهي البحث في ظاهرة الغيرة عند الشاعر قبل أن نضيف الأبيات التالية إلى رصيد موقفه المتسامح، وقد صرح فيها بما يمكن أن يفعل لو حدث شيء لا يرضاه فقال:

إذَا مَا خَلِيْلٌ خَانَنِي وَأَتَمَنْتُهُ ... فَذَاكَ وَدَاعِيْهِ وَذَاكَ وَدَاعُهَا
رَدَدْتُ عَلَيْهِ وُدَّهُ وَتَرَكْتُهَا ... مُطَلَّقَةً لا يُسْتَطَاعُ رِجَاعُهَا

وإنِّي إمْرأٌ مِنِّي الحَيَاءُ الذي تَرَى ... أَعِـشُ بِـأَخْلاَقٍ قَـلِـيْـلٌ خِـداعُـهَـا

وبعد هذا العرض نستطيع أن نقول: إن موقف الشاعر من الغيرة متميز ولنا أن نتساءل عمّا وراء هذا الموقف وما الباعث عليه وَلِمَ انفرد به دون سواء من الشعراء؟.

ولا بد من التماس الأسباب الكامنة وراء اقتناعه بأهمية إعلان رأيه ومواجهة المجتمع الذي يعيش فيه بهذه القدرة من الشجاعة الأدبية، ولن نطمع في تعليل هذه الظاهرة في شعر مسكين من خلال دراسة للأحوال الاجتماعية السائدة يومذاك فقد تبين أن المجتمع الذي عاش فيه كان يميل إلى المبالغة في الغيرة والتطرف فيها حتى عدّها الشعراء الذين عاصروه إحدى الخصال الحميدة التي يمدحون بها ويذكرونها كأحد أمثلة مكارم الأخلاق التي جبل عليها العربي، كما أننا لن نطمع في العثور على سبب جليّ جعل الشاعر ينحو المنحى الذي لا وجود له عند غيره، وليس أمام الباحث غير الاجتهاد في الأسباب بعد استقراء حياة الشاعر الخاصة وصلاته برجال عصره من الخلفاء والولاة والمؤثرين الأقوياء في الحياة.

والاحتمال الممكن هو الالتفات إلى الشاعر وإلى حياته العامة وحياته الخاصة فلعل فيهما ما يمكن أن يكون مبرراً معقولاً لوقوفه الموقف الرافض لعادات المجتمع وقوانينه وما اصطلح عليه من مواصفات اجتماعية.

صلة الشاعر بمعاوية:

لقد أورد صاحب الأغاني روايات عنه تعد ـ على قلتها ـ أساساً في وضع الأحكام التي سيعالجها البحث عند الحديث عن الجوانب الخفية من حياة الشاعر الخاصة وعن حياته العامة، فهي الزاد الذي يمكن أن تدرس على ضوئها البواعث في شعره. ومن روايات الأغاني قوله بعد أن أورد مهاجاته للفرزدق: أخبرني هاشم بن محمد الخزاعي قال: حدثني محمد بن عبدالله بن مالك الخزاعي قال حدثني عبدالله بن ياسر قال: أخبرني أيوب بن أبي أيوب السعدي قال قدم مسكين الدارمي على معاوية، فسأله أن يفرض له فأبى عليه، وكان لا يفرض إلا لليمن، فخرج من عنده مسكين وهو يقول:

- أَخَاكَ أَخَاكَ إنَّ مَنْ لاَ أَخَا لَهُ ... كَسَاعٍ إلى الـهَـيْـجَـا بِغَيْرِ سِلاَحِ
- وإنَّ ابْنَ عَمِّ المَرْءِ فَاعْلَمْ جَنَاحُهُ ... وَهَلْ يَنْهَضُ البَازِي بِغَيْرِ جَنَاحِ

-وَمَا طَالَبُ الحَاجَاتِ إلاَّ مُغَرَّرٌ...وَمَا نَالَ شَيْئاً طَالِبٌ كَنَجَاحِ

.

قال السعدي: فلم يزل معاوية كذلك حتى عزت اليمن وكثرت وضعفت عدنان، فبلغ معاويةَ أنَّ رجلاً من أهل اليمن قال يوماً لهممت ألاَّ أدع بالشام أحداً من مضر بل هممت ألاَّ أحل حبوتي حتى أخرج كل نزاري بالشام، فبلغت معاويةَ، ففرض من وقته لأربعة آلاف رجل من قيس سوى «خندف» وقدم على تَفِئَةِ ذلك عطارد بن حاجب على معاوية، فقال له: ما فعل الفتى الدارمي الصبيح الوجه الفصيح اللسان يعني مسكيناً فقال صالح يا أمير المؤمنين، فقال: أعلمه أني قد فرضت له في شرف العطاء وهو في بلاده، فإن شاء أن يقيم بها أو عندنا فليفعل، فإنَّ عطاءه سيأتيه وبشره بأني قد فرضت لأربعة آلاف من قومه من خندف⁽٦٦⁾. هذه أولى روايات الأغاني أما الثانية فتقول: (أخبرني محمد بن مزيد قال: حدثني حماد بن اسحاق الموصلي قال: حدثني أبي، عن الهيثم بن عدي، عن عبدالله ابن عياش قال: كان يزيد بن معاوية يؤثر مسكيناً الدارمي ويصله، ويقوم بحوائجه عند أبيه، فلما أراد معاوية البيعة ليزيد تهيب ذلك، وخاف ألا يمالئه عليه الناس لحسن البقية فيهم، وكثرة من يرشح للخلافة، وبلغه في ذلك ذَرو كلام كرهه من سعيد بن العاص، ومروان بن الحكم وعبدالله ابن عامر فأمر يزيد مسكيناً أن يقول أبياتاً، وينشدها معاوية في مجلسه إذا كان حافلاً، وحضره وجوه بني أمية، فلما اتفق ذلك دخل مسكين إليه وهو جالس، وابنه يزيد عن يمينه، وبنو أمية من حواليه وأشراف الناس في مجلسه، فمثل بين يديه وأنشأ يقول:

-إِنْ أُدْعَ مِسْكِيناً فَإِنِّي ابْنُ مَعْشَرٍ...مِنْ النَّاسِ أَحْمِي عَنْهُمُ وَأَذُوْدُ-
-إِلَيْكَ أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ رَحَلْتُهَا...تُثِيْرُ القَطَا لَيْلاً وَهُنَّ هُجُوْدُ-
-أَلاَ لَيْتَ شِعْرِي مَا يَقُولُ ابْنُ عَامِرٍ...وَمَرْوَانُ أَمْ مَاذَا يَقُولُ سَعِيْدُ-
-بَنِي خُلَفَاءِ اللهِ مَهْلاً فإنَّمَا...يُبَوِّؤُهَا الرَّحْمَٰنُ حَيْثُ يُرِيْدُ-
-إذَا المِنْبَرُ الغَرْبِيُ خَلاَّهُ رَبُّهُ...فَإنَّ أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ يَزِيْدُ-

إلى آخر القصيدة ثم ذكرت الرواية أن معاوية قال: (ننظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله، قال: ولم يتكلم أحد من بني أمية في ذلك إلا بالإقرار والموافقة، وذلك الذي أراده يزيد، ليعلم ما عندهم ثم وصله يزيد ووصله معاوية فأجزلا صلته)⁽٦٧⁾.

أما الرواية الثالثة التي نعرف منها بعض جوانب حياة الشاعر العامة ومشاركاته في أحداث عصره فقد أوردها صاحب أنساب الأشراف في معرض حديثه عن ثورة الخوارج ضد خلافة معاوية تقول

الرواية بعد أن ذكرت انتصار والي معاوية على المستورد الخارجي: (وكان من رجز مسكين بن عامر الدارمي يومئذ:

-أَضْرِبُهُمْ وَلَو أَرَى مَسْتَوْرَدَا ... تَرَكْتُهُ في القَاعِ يَكْبُو مُقْصَدَا-

ثم ذكرت الرواية أن المغيرة بن شعبة والي معاوية على الكوفة أوفد مسكيناً وأبا الرواغ إلى معاوية فوصلها وزاد في إعطائهما(٦٨).

وإذا أضفنا إلى ذلك منزلته عند والي العراق زياد بن سمية وأنه كان يبره ويرعيه الحمى في عام القحط ويصله بالطعام والكساء ثم رثاءه له عند موته وبكاءه عليه في مثل قوله(٦٩).

-رَأَيْتُ زِيَادَةَ الإِسْلَامِ وَلَّتْ ... جِهاراً حِيْنَ وَدَّعَنَا زِيَادُ-

وجهره بذلك رغم ما يكنه أهل العراق وتميم خاصة وأسرة مسكين لزياد من بغض، وماكاد يجر عليه هذا الموقف من ملاحاة مع ابن عمه وشاعر قومه الفرزدق، كل ذلك يجعلنا على علم بموقف الشاعر من بني حرب وصلته بهم، وتبين لنا أنه صوت قوي يمثل الخليفة ويعبر عن رأيه الخاص بل هو الناطق بلسانه أمام الأمة فيما لا يستطيع الخليفة نفسه أن يواجه به الناس، وليس ذلك وحسب، بل إنَّ رواية الأصفهاني تصور مسكيناً وهو يتدخل بشعره لحسم بعض الخلافات بين بني أمية على نحو ما جهر به على الملأ في مجلس معاوية معلناً رغبة الخليفة في أن يكون ابنه هو الوارث للخلافة وبذلك قطع كل أمل كان يراود أقطاب البيت الأموي. وأعلن ذلك صراحة دونما تورية أو تلميح، فصدع بأسماء من كانوا ينافسون يزيد وساءلهم ماذا يريدون؟ ثم ماذا يقولون في خلافته ثم لا يترك لهم الإجابة بل يعلن أن الخلافة إرث سينتقل إليه وعليهم أن ينصرفوا عن رغبتهم في الخلافة والطمع فيها إلى ما أراد الله وأن عليهم أن يطيعوا ويسمعوا:

-بَنِي خُلَفَاءِ الله مَهْلاً فَإِنَّمَا ... يبوّؤها الرَّحْمٰنُ حَيْثُ يُرِيْدُ-
-إِذَا المِنْبَرُ الغَرْبِيُّ خَلاَّهُ رَبُّهُ ... فَإِنَّ أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ يَزِيْدُ-

فهو هنا لم يعد شاعراً فحسب وإنما هو ناطق رسمي باسم الخليفة وقد عرف بنو أمية مكانته عند معاوية فلم ينله منهم مكروه، لأنه يعبر عن رغبة الخليفة وربما كان ذلك بإيعاز منه مستغلاً شاعرية الدارمي ولم تكن وظيفته في بلاط معاوية تطوعاً ولكنه أصبح موظفاً رسمياً في البلاط ففرض معاوية له في شرف العطا عندما احتاج إلى خدماته ليقوم بنشر ما يريد ويعبر عن سياسته وقد كان قبل الحاجة إليه

يجفوه ويجفو قومه كافة وعندما احتاجه لم يكتف بضمه إلى ديوان الشام مع ثمانية آلاف من العدنانيين بل جعله في شرف العطاء. والخليفة يسوس أمة ويرعى مجتمعاً وقد رأى أن التطرف في الغيرة والشطط فيها بلغ حداً مضراً بعلائق الناس وعرّض بعض من لا يستهان بهم من الشعراء إلى مطاردة الولاة وهدر الدم والتغريب من الأرض كما وصف جميل:

-أَتَانِي عَنْ مَرْوَانَ بِالغَيْبِ أَنَّهُ ... مُقِيْدٌ دَمِي أَوْ قَاطِعٌ مِنْ لِسَانِيَا-
-فَفِي العِيْسِ مَنْجَاةٌ، وَفِيْ الأَرْضِ مَذْهَبٌ ... إِذَا نَحْنُ رَفَّعْنَا لَهُنَّ المَثَانِيَا-

وقد لقِي الشعراء العذريون وغير العذريين عناء في سبيل حبهم الطاهر العنيف ولم يسلم الخليفة وأهله من ألسنة الناس وشعر(٧١) الشعراء فأظهر الخليفة تبرّمه وغضبه من الشطط في الغيرة والإفراط فيها، وبدأ يلقي في أحاديثه العامة ما يدل على إتجاهه إلى محاربة هذه الظاهرة فقد روي البلاذري في أنساب الأشراف عن المدائني وغيره أن معاوية قال: ثلاث من السؤدد: الصلع واندحاق البطن وترك الإفراط في الغيرة(٧٢) ولم يكتف بالكلام بل عمد إلى التطبيق العملي كما نقول اليوم عندما شبب عبد الرحمن بن حسان بإحدى نسائه في قصة رواها البلاذري عن المدائني أيضاً على هذا النحو (عن أبي عبد الرحمن بن المبارك قال: شبب عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري، بأخت معاوية، فغضب يزيد فقال لمعاوية: يا أمير المؤمنين اقتل عبد الرحمن بن حسان: قال ولم يا بني؟ قال: إنه شبب بعمتي قال: وما قال فيها؟ قال:

-طَالَ لَيْلِي وَبِتُّ كَالْمَحْزُونِ ... وَمَلَلْتُ الثَّوَاءَ فِي جِيْرُونِ-

قال: وما علينا يا بني من طول ليله وحزنه أبعده الله، قال إنه يقول:

-وَلِذَاكَ اغْتَرَبْتُ بِالشَّامِ حَتَّى ... ظَنَّ أَهْلِي مُرَجَّمَاتِ الظُّنُونِ-

قال وما علينا من ظن أهله؟ قال إنه يقول:

-هِيَ زَهْرَاءُ مِثْلُ لُؤْلُؤَةِ الغَوَّا ... صِ مِيْزَتْ مِنْ جَوْهَرٍ مَكْنُونِ-

قال: صدق يا بني إنها لمن جوهر مكنون، قال وإنه يقول:

-وإِذَا مَا نَسَبْتَهَا لَمْ تَجِدْهَا ... فِي سَنَاءٍ مِنْ المَكَارِمِ دُوْنِ-

قال صدق وهي بحمدالله كذلك قال إنه يقول:

-ثُمَّ خَاصَرْتُهَا إِلَى القُبَّةِ الخَضْ ... رَاءِ نَمْشِي فِي مَرْمَرٍ مَسْنُونِ-

قَالَ لاَ ولاَ كُلُّ هَذَا، ثم ضحك وقال ما ما قال أيضاً؟ قال: قال:

-قُبَّةٍ من مَرَاجِلَ شَيَّدُوهَا...عند حَدِّ الشِّتَاء في قَيْطُونِ-
-عَنْ يَسَارِي إذَا دَخَلْتُ مِنْ البَا...بِ وإنْ كُنْتُ خَارِجاً عَنْ يَمِيْنِي -
-تَجْعَلُ النَّدَ والأُلُوَّةَ وَالعَو...دَ صِلاءً لَهَا عَلَى الكَانُوْنِ -
-وَقِبَابٌ قَدْ أُشْرِجَتْ وَبِيُوتٌ...نَطَّفُوْهَا بالآسِيْ وَالزَّرْجُونِ -

قال يا بني لا يجب القتل في هذا، والعقوبة دون القتل تغرية فيزيد في قوله ولكنّا نكفه بالتجاوز والصلة، فوصله وصرفه(٧٣).

إذن فالغيرة لم تعد مشكلة إجتماعية فحسب فقد أصبحت مشكلة سياسية أيضاً والخليفة أصبح يواجه واقعاً إجتماعياً يراه مجانفاً للصواب وضاراً بالأمن الذي يهمه أن تتمتع الرعية به، ويود لو أقلع الناس عنها أو قللوا من الشطط والتطرف فيها.

ووجد من لسان الدارمي ما ينهض بنقل وجهة نظره وقد عرف ذلك منه في أخطر المواقف وأكثرها حساسية على نحو ما مر من أمر الخلافة وبدعة توريث الملك، ولعل الشاعر في موقفه الذي يعرضه البحث كان مستجيباً إلى موقف الخليفة من الغيرة عندما صدع بشعر اصطبغ بلون متميز عن غيره وظهرت فيه روح البعد عن الشطط وقد يكون تأثّر باتجاه الخليفة إن لم يكن ذلك قد جاء بتوجيه صريح مباشر منه أو ربما تجاوباً وإيحاء خفياً مع رغبته التي أظهرها للناس، فنحن الآن نعرف مسكيناً ونعرف صلته ببلاط معاوية ونعرف مكانته عند الخليفة كما نعرف شجاعته الأدبية فيما عرض من مواقف تصدى لها بالرغم من إجماع الناس على غيرها في الأغلب الأعم، ونعرف من جانب آخر موقف الخليفة من الإفراط في الغيرة ومحاولته درء شطط الناس وجموح عواطفهم فلماذا إذن لا يكون موقف الشاعر في هذا المنحى إستجابة لرغبة الخليفة وتعبيراً رسمياً عن الرفض للتمادي في عادة بلغت حد الضرر الاجتماعي فحاول الخليفة التقليل منه وحذر الناس من الايغال فيه، ولم يستطيع معاوية التصريح برغبته لأن الغيرة في حقيقية الأمر خصلة كريمة وخلق محمود وعرف اجتماعي يعبر عن مروءة، ولن يجازف الخليفة بإصدار أمر صريح يمنع ذلك حتى لا يتعرض موقفه للنقد الاجتماعي(٧٤) مع ما عرف عنه من حذر شديد في مواجهة الناس بما لا يرضون، وَشُهِدَ له بالمجاملة حتى ضرب المثل بشعرة معاوية، والبيعة ليزيد مثلاً أخذت وقتاً ليس يسيراً ومرت سنوات عدة ومشاورات طويلة مع ولاته وخاصته وأهل بيته قبل إعلانها، وتردد عن مواجهة الناس بها بالرغم من عقده العزم عليها وعندما

وصل إلى القناعة التامة بتوريث الملك لم يجعل نفسه المصدر الأول الذي يفاجىء الناس بما يعتقد أنهم يرفضونه فاختار مسكيناً للقيام بذلك حتى يكون البادىء المقترح لرغبته التي بيّتها وأحكم الأمر لها.

إن الاحتمال الوارد هنا هو أن الخليفة كان وراء موقف مسكين وهو احتمال ممكن خاصة بعد أن علمنا الصلة القوية التي نمت بينهما. وهو أحد احتمالين يطرحها البحث لتفسير خروج مسكين عن الإجماع ونظرته الخاصة إلى الغيرة.

أما الاحتمال الثاني فيدور حول حياة الشاعر الخاصة، ويلتمس ما قد يبعث على ذلك الموقف من منطلق ذاتي بحت وقد أسعفنا الأصفهاني بروايات منها قوله: (٧٥).

«أخبرني محمد بن خلف بن المرزبان قال: حدثنا أبو العيناء، عن الأصمعي قال: خطب مسكين الدارمي فتاة من قومه فكرهته لسواد لونه وقلة ماله، وتزوجت بعده رجلاً من قومه ذا يسار، وليس له مثل نسب مسكين، فمرّ بهما مسكين ذات يوم، وتلك المرأة جالسة مع زوجها فقال:

-أَنَا مِسْكِيْنٌ لَمَنْ يَعْرِفُنِي ... لَوْنِيَ السُّمْرَةُ أَلْوَانُ العَرَبْ-
من رَأَى ظَبْياً عَلَيْهِ لُؤْلُؤٌ ... وَاضِحَ الخَدَّيْنِ مَقْرُوناً بِضَبْ-
-كَسِبَتْهُ الْوَرِقُ البِيْضُ أَباً ... وَلَقَدْ كَانَ وَمَا يُدْعَى لأَبْ-
رُبَّ مَهْزُولٍ سَمِيْنٌ بَيْتُهُ ... وَسَمِيْنِ البَيْتِ مَهْزُولُ النَّسَبْ-
أَصْبَحَتْ طَمَاحَةً مُغْتَلَّةً ... قَرِمَتْ بَلْ هِيَ وَحْمَى لِلصَّخَبْ-
-أَصْبَحَتْ تُرْزَقُ مِنْ شَحْمِ الذُّرَا ... وَتَخَالُ اللُّؤْمَ دُرّاً يُنْتَهَبْ-
-لاَ تَلُمْهَا إِنَّها مِنْ نِسْوَةٍ ... صَخِبَاتٍ مِلْحُهَا فَوْقَ الرُّكَبْ(٧٦) -
-كَشَمُوسِ الخَيْلِ يَبْدُو شَغْبُهَا ... كُلَّمَا قِيْلَ لَهَا هَالِ وَهَبْ-

هذه الرواية وهذه القصيدة تصلحان مدخلاً جيداً إلى حياة الشاعر الخاصة التي ربما كانت ذات أبعاد ودلالات. في اتجاهه إلى الرصانة في الشعر، وإلى الموقف المتأمل في الحياة وعلائق الناس وروابطهم وهناك رواية أخرى أوردها الأصفهاني نرى من الملائم أن نرويها قبل أن نخص القصيدة بحديث. تقول هذه الرواية: (٧٧) (أخبرني محمد بن الحسن بن دريد قال: حدثنا عبد الرحمن بن أخي الأصمعي قال: حدثني عمي قال: كانت لمسكين الدارمي امرأة من منقر، وكانت فاركاً كثيرة الخصومة والمماظّة له فاجتازت به يوماً وهو ينشد قوله في نادي قومه:

-إِنْ أَكُ مِسْكِيناً فَمَا قَصَرَتْ ... قِدْرِي بِيُوْتُ الحَيِّ وَالجُدُرُ-

فوقفت عليه تسمع حتى إذا بلغ:

-نَارِي ونَارُ الجَارِ وَاحِدَةٌ... وَإِلَيْهِ قَبْلِي تَنْزِلُ القِدْرُ-

فقالت له: صدقت والله، يجلس جارك فيطبخ قدره، فتصطلي بناره، ثم ينزلها فيجلس يأكل وأنت بحذائه كالكلب، فإذا شبع أطعمك أجل واللهِ إنَّ القدر لتنزلَ إليه قبلك، فأعرض عنها ومرّ في قصيدته، حتى بلغ قوله:

-مَا ضَرَّ جَاراً لِي أُجَاوِرُهُ أَلاَّ يَكُونَ لِبَيْتِهِ سِتْرُ-

فقالت له: أجل، إن كان له ستر هتكته، فوثب إليها يضربها وقومه يضحكون منها.

لا شك أن هاتين الروايتين تعطيان مجالاً معقولاً لإدارة الحوار حول حياته الخاصة وعلاقته بالمرأة الزوجة، فالرواية الأولى تجعل مسكيناً قليل القَبول لدى النساء وتصور حظه القليل من حبهن وتصف لونه الداكن كما تذكر رغبتهن عنه إلى غيره ممن هو أقل منه مكانة اجتماعية كما تضيف الرواية عاملاً آخر باعد بينه وبين النساء وهو أنه قليل المال والنساء لا يطبيهن بعد الجمال والشباب مثلِ المال كما قال الفحل(٧٨).

إذَا شَابَ رَأْسُ المَرْءِ أَوْ قَلَّ مَالُهُ... فَلَيْسَ لَهُ مِن وُدِّهُنَّ نَصِيبُ
يُرِدْنَ ثَرَاءَ المَالِ حَيْثُ عَلِمْنَهُ... وَشَرْخُ الشَّبَابِ عِنْدَهُنَّ عَجِيبُ

وصاحبنا لم يكن ذا مال ولا جمال وقد ألجأه شعوره بذلك إلى الدفاع عن لونه والاحتجاج لسمرته بأنها صفة العربي الأصيل: «لوني السمرة ألوان العرب» أما قلة المال فلم تسغ له حُجة في ذلك، ولعل انحيازَه إلى جانب الولاة ومجاراته للخليفة كان محاولة منه لكسب المال والجاه وقد باءت محاولته الأولى مع المرأة بالفشل وكان لذلك أثر في نظرته إلى الحياة بعامة وإلى حياته خاصة وإلى السلوك الإنساني كله بما فيه سلوك المرأة وطباعها.

ولكنه لم يكن عدوانياً في موقفه معها بل كان ليناً تقبل القضية بهدوء وعرض رأيه فيها على الواقع الاجتماعي والنظرة العامة ولم يجعل سبب ذلك عدم الرغبة فيه ولكن الطموح إلى فضل ليس لديه ولا يستطيع تحقيقه لنفسه فحمل ذلك على طلب المال وليس البغض له أو النفور منه.

-كَسِبَتْهُ الوَرِقُ البِيْضُ أَباً... وَلَقَدْ كَانَ وَمَا يُدْعَى لأَبْ-

أما الرواية الثانية ففيها أثر من حادثة الرواية الأولى التي أخفقت فيها محاولته مع المرأة المخطوبة.

فقد صارت هذه المرأة زوجاً وهي مبغضة، سيئة العشرة رجلة تغشى النوادي وتلم بمجالس الحي، وتظهر المقت والبغض له، فيقودها ذلك إلى أن تجد في شعره الذي يعرضه على قومه معاني تقبل الأمرين وتفهم على المعنيين فتقلب ما أراد إلى ضده، فإذا زعم أن ناره ونار الجار واحدة وأنه المتفضل على الجار يشركه في طعامه وشرابه ويكفيه مؤنة الحياة، أصرت هذه الزوجة السليط اللسان على أن العكس هو الصحيح وأن الشاعر يعيش عالة على جاره، وأنه صادق عندما يصف أن قدرهما واحدة ولكنها قدر الجار وليست قدر الشاعر. ولم تبخل عليه بصفات لا تدل إلا على تأصل الكراهية والبغض الدفين فتصفه بصفات مقذعة ثم تجعل الرواية الشاعر يعرض عن ذلك ويمر في إنشاده كأنه لم يسمع ، متجاهلاً ما تصفه به من الصفات البذيئة حتى إذا أخذ في واد آخر متحدثاً عن مروءته وخلقه مع جاره:

-أَعْمَى إذَا مَا جَارَتِيْ بَرَزَتْ ... حَتَّى يُوَارِي جَارَتِيْ الخِدْرُ-
-مَا ضَرَّ جَاراً لِيْ أُجَاوِرُهُ ... ألاَّ يَكُوْنَ لِبَيْتِهِ سِتْرُ-

أعادت توجيهها لشعره مرة أخرى مواصلة الحديث جاعلة زوجها هتاكاً لكل ستر فلا يبقي الجار منه خلق ولا يحميه ستر.

وشخصية هذه المرأة لا يمكن تجاوزها دون وقفة متأنية يبحث فيها عن أثرها في موقف الشاعر من المرأة وعلاقته الخاصة بها والتعامل معها، ومجمل الانطباع عن المرأة التي أقترن بها الشاعر أنها امرأة جسور برزة تغشى النادي وتلقى الرجال وتشارك في نقد الشعر وهي مبغضة قالية لزوجها ومادامت هذه شخصية الزوجة التي عاش معها الشاعر في كنّ واحد فما عسى أن تصنع غيرة مثله على مثلها من النساء وقد ظهر عاجزاً عن اتقاء لسانها بله السيطرة عليها والتحكم في سلوكها، إنها أقوى منه في مواجهة الناس وأجرؤ منه بما تريد أن تقول ومثلها لا تعيش مع رجل غيور، ولا تعدل غيرته شيئاً من سلوكها.

لكن هل نقول إن موقفه من الغيرة وإنشاده الشعر الذي يدعو فيه إلى التسامح وعدم الإفراط فيها جاء نتيجة وإنعكاساً لحياته الزوجية وعلاقته الخاصة بالمرأة وهل نزعم أنه تبرير وهروب من واقع لا يستطيع تغييره لاستخذائه أمام هذه الزوجة ربما كان شيء من ذلك وارد، وربما كان موقف الخليفة من الغيرة قد شجع الشاعر على رفض الواقع الاجتماعي الذي فرض عليه باقترانه بهذه الزوجة فاجتمع عليه الأمران ونتيجة إلحاحها واجه المجتمع برأيه المخالف للعادات الإجتماعية.

كل ذلك يمكن أن يكون أمراً معقولاً لتفسير موقفه الشاذ. ولا يبعد أن تلك الظروف جميعها أحاطت به وجعلته يصل إلى ما وصل إليه من رأي لا يحبذ الغلو في الغيرة بعد أن تحقق له أنها غير قمينة بتحقيق الهدف الذي يراد منها.

وأياً ما كان الأمر فقد وجد في شعر مسكين الدارمي ظاهرة استحقت هذا البحث وكانت موضوعاً جديداً في الأدب العربي تميز على لسانه وفي شعره، ومات معه ولم يتطور بعده.

وأخيراً إن لم يهتد البحث إلى صواب التعليل فحسبه أنه طرح الموضوع للمناقشة.

●●●

الهوامش

(١) مثل فن الغزل الصريح الذي ينسب إلى عمر بن أبي ربيعة وبدايته كانت منذ الجاهلية.

(٢) مثل الغزل العذري الذي ينسب كما له إلى عدد من الشعراء وهو موجود من الجاهلية وكذلك فن النقائض الذي تميز واكتمل على لسان أكثر من شاعر في عصر بني أمية أما أصله فعرف منذ الجاهلية.

(٣) ديوان امرىء القيس، ١٧٦، وتاريخ النقائض ٤٨ وفيه بعض الاختلاف في ترتيب الأبيات وأشطرها. وهي صورة بدائية للنقائض قبل كما لها الفني.

(٤) أنظر كتاب الغزل في العصر الجاهلي للدكتور أحمد الحوفي فقد تتبع فيه نشأة الغزل في الجاهلية وذكر عدداً من شعرائه ولا سيما في الباب الذي عقده لمناقشة الآراء حول بدايته ص ١٤٨.

(٥) أنظر مادة «غ ي ر» في لسان العرب، والصحاح.

(٦) جاء في الإفصاح في فقه اللغة قوله الغيرة غار الرجل على امرأته يغار غيرة ثارت نفسه مبالغة في المحافظة عليها.

(٧) المزهر في علوم اللغة، ح١، ص ١٥٨.

(٨) العقد الفريد، ج٢، ص ١٩١، وأمالي المرتضي، ح١ ص ٢٧٣.

(٩) الأمالي لأبي علي القالي، ١٠٦ المزهر في علوم اللغة ح١ ص ١٥٨.

(١٠) الحيوان، ح٢، ص ٢٠٦.

(١١) أخبار النساء، ١٠.

(١٢) مجمع الأمثال ج٢، ص ١٣٢.

(١٣) المرأة في الشعر الجاهلي، ص ٢٩٥.

(١٤) الأغاني، ج ١٤، ص ٦٨.

(١٥) المرأة في الشعر الجاهلي، ص ٢٩٤.

(١٦) الأغاني، ج١٤، ص ٦٨.

(١٧) الأسراء، ٣١.

(١٨) الأنعام، ١٥١، ومثل هاتين الآيتين جاء قوله تعالى (وكذلك زين لكثيرين من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم، الآية، سورة الأنعام ١٣٧، وفي تفسيرها جاء قول بعض المفسرين: زينوا لهم قتل أولادهم خشية الأملاق، ووأد البنات خشية العار) انظر مختصر تفسير ابن كثير، جـ١ ص ٦٢٢، إذن قتل الولد في القرآن سببه الظاهر هو الفقر سواء بتزيين الشركاء أو بغيره.

(١٩) التكوير، ٨.

(٢٠) النحل، ٥٨.

(٢١) وقد يقال: إن الرجال هم عماد القبيلة في الجاهلية، وأن وأد الذكور من الأولاد خوف الفقر يضعف مكانتها بين القبائل لذلك كان الوأد للأنثى خاصة التي لا تحتاجها القبيلة للدفاع عنها، لولا أن المفسرين والمؤرخين ذكروا أن عادة بعض العرب ألا تئد البنت حتى تبلغ من العمر ست سنوات أو أكثر، ولو كان الفقر هو السبب الوحيد للوأد لما انتظر أبوها وأنفق عليها هذه المدة ثم قتلها عندما صارت مؤنتها أقل والتعلق بها أقوى. ولا نقول: إن الفقر ليس سبباً في الوأد فقد صرح القرآن بذلك وهناك روايات تدل على الوأد خوف الفقر، إنما نقول: إن الغيرة سبب محتمل للوأد لما أوضحنا في متن البحث من تصريح بعض من وأد بأنه يفعل ذلك خوف العار وليس خوف الفقر.

(٢٢) النوادر في اللغة، ٢١.

(٢٣) ديوان كثير، ٣٨٦.

(٢٤) ديوان عمر بن لجا التيمي، ١٠٢، ١٠٥، ١٣٢.

(٢٥) الديوان، ١٠٥.

(٢٦) الديوان، ١٣٢.

(٢٧) الديوان، ٢٧.

(٢٨) انظر ديوان زيد بن الطثرية، ٧٤، ٧٥، ٩٨.

(٢٩) ديوان ذي الرمة، ٩٧٩.

(٣٠) ديوان كثير عزة، ص ١٣٦.

(٣١) ديوان عبد بني الحسحاس، ص ٣٥.

(٣٢) ديوان ذي الرمة، ص ٨٧٢.

(٣٣) ذي الرمة، ص ٧٧٥

(٣٤) ديوان الراعي، ص ٨٣.

(٣٥) ديوان جميل بثينة، ص ٨٧.

(٣٦) ديوان كثير، ص ٢٠٠.

(٣٧) ديوان جميل بثينة، ص ٦٠.

(٣٨) ديوان بن قيس الرقيات، ص ١٢٢.

(٣٩) ديوان امرىء القيس، ص ١٦٣.

(٤٠) ديوان الراعي، ص ٤٨.

(٤١) ديوان جميل بثينة، ص ٧٤.

(٤٢) المصدر السابق، ص ١٩.

(٤٣) ديوان ذي الرمة، ج٢، ص ١٢٠٩.

(٤٤) ديوان كثير، ص ٩٥.

(٤٥) أنساب الأشراف، ج١، ص ١٨.

(٤٦) اسمه ربيعة بن عامر بن أنيف بن شريح بن عمرو بن زيد بن عبدالله بن عدس من بني دارم، ومسكين لقب غلب عليه وعرف به كأغلب الشعراء الذين غلبت ألقابهم على أسمائهم ومنهم بن عمه الفرزدق، وليس واضحاً سبب نبزه بمسكين، لكن يظهر من شعره عدم تقبله هذا اللقب إلا على مضض وقد رأى أنه لصق به ولا مجال لتجاهله فذكر بعض التعديلات وتحدث عن القبول المضض بهذا الاسم كقوله:

– وسميت مسكينا وتلك لحاجة   وإني لمسكين إلى الله راغب –

وقوله:

– أنا مسكين لمن أنكرني   ولمن يعرفني `جد نطق –

مثله:

– ان أدع مسكيناً فإني ابن معشر   من الناس أحمي عنهم وأذود –

وقوله أيضاً:

– لعمرك ما لأسماء إلا علامة   منار ومن خير المنار ارتفاعها –

(٤٦) النقائض ، ج٢، ص ٦٢٠.

(٤٧) طبقات فحول الشعراء، ج١، ص ٣٠٩.

(٤٨) تاريخ الرسل والملوك، ج٥، ص ١٩٧، ٢٠٦، ٢٠٩، ٢٩٠، ج٦، ص ٧٠.

(٤٩) أنساب الأشراف، ج١، ص ١٧١.

(٥٠) خزانة الأدب، ج٣، ص ٦٩.

(٥١) جمع شعره وحققه وضمه في ديوان عبدالله الجبوري وخليل ابراهيم العطية وقد نشر في بغداد عام ١٣٨٩هـ ـ ١٩٧٠م.

(٥٢) انظر مقدمة الديوان، ص ١٧.

(٥٣) الديوان، ص ٤١.

(٥٤) الديوان، ص ٤٧.

(٥٥) الديوان، ص ٥٥.

(٥٦) الديوان، ص ٢٢.

(٥٧) الديوان، جامعا ٥٢.

(٥٨) الأغاني، ج٢، ص ١٧٠ كما ألمح جامعا الشعر إلى ذلك في مقدمة الديوان وقالا أثرت عنه بعض الأغراض التي يندر وجودها عند شعراء عصره كما هو الحال في القطعة رقم ٣٦ التي قيل فيها أحسن ما قيل في الغيرة وهي نفس القطعة التي أشار إليها صاحب الأغاني، أنظر مقدمة الديوان، ص ١٧.

(٥٩) الديوان، ص ٤٤.

(٦٠) الديوان، ص ٢٨.

(٦١) الديوان، ص ٢٧.

(٦٢) الديوان، ص ٦٧.

(٦٣) للطفيل الغنوى في هذا المعنى قوله:

إن النساء متى ينهين عن خلق   فإنه واجب لا بد مفعول

الديوان، ٦١، وأخبار النساء، ١١ وطبائع النساء ١٧٢.

(٦٤) الديوان، ص ٤١.

(٦٥) الديوان، ص ٤٧.

(٦٦) الأغاني، ج٢ ص ١٧١.

(٦٧) الأغاني، ج٢، ص ١٧٦.

(٦٨) أنساب الأشراف، ج١ ص ١٧١.

(٦٩) الأغاني، ج٢، ص ١٦٨.

(٧٠) ديوان جميل، ص ٧٣، والأغاني، ج٨، ص ١٢٥.

(٧١) تروي الأغاني أن عبد الرحمن بن حسان شبب برملة بنت معاوية وقد ثار لذلك يزيد ولكن معاوية أظهر الكثير من التسامح مع الشاعر ووصله لينصرف إلى المدينة ومنع ابنه من الانتقام وقد طلب من الخليفة قتل الشاعر. ولم تطب نفس يزيد فأمر الأخطل بهجاء الأنصار فهاجم بقصيدة منها:

–ذهبت قريش بالمكارم كلها والـلـؤم تحت عمائم الأنصار–

فثار النعمان بن بشير ولقي الخليفة عناء في تهدئة ثورة أكرم فريق على المسلمين وبلغ به الأمر مبلغه لما علم أن يزيد وراء هجاء الأنصار وأنه قد أجار الشاعر.

الأغاني، ج ١٥، ص ٨٥، ج١٦، ص ٨.

(٧٢) أنساب الأشراف، ج١ ص ١٨.

(٧٣) أنساب الأشراف، ج١ ص ١٨.

(٧٤) ذكر السيوطي في أخبار النساء أن معاوية قد تعرض لنقد الناس عندما نسب إليه قوله السابق: ثلاث من السؤدد ونسبوه إلى قلة الغيرة ص ٨٥.

(٧٥) الأغاني، ج٢٠، ١٧٤.

(٧٦) مثل يضرب لسريع الغضب سيء الخلق كفور المعاشرة، أنظر الميداني، مجمع الأمثال ج٢، ص ٢٦٩.

(٧٧) الأغاني، ج٢٠، ص١٧٨.

(٧٨) إشعار الشعراء الستة الجاهليين، ص ١٤٤.

المراجع

(١) ـ أخبار النساء، تأليف بن القيم الجوزية، تحقيق نزار رضا تاريخ ١٩٨٢م نشر دار مكتبة الحياة.

(٢) ـ أشعار الشعراء الستة الجاهليين، اختيارات من الشعر الجاهلي تأليف الأعلم الشنتمري، نشر دار الآفاق الجديدة الطبعة الثالثة، تأريخ ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

(٣) ـ الإفصاح في فقه اللغة، عبد الفتاح الصعيدي، مادة غير نشر دار الفكر الطبعة الثانية، تأريخ ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م.

(٤) كتاب الأغاني تأليف، أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، نشر دار الثقافة الطبعة الرابعة بدون تأريخ.

(٥) ـ أمالي المرتضى، تحقيق أبو الفضل إبراهيم.

(٦) أنساب الأشراف، تأليف البلاذري تحقيق إحسان عباس.

(٧) ـ تأريخ النقائض في الشعر العربي، تأليف أحمد الشايب، نشر مكتبة النهضة المصرية الطبعة الثانية، تأريخ ١٩٥٤م.

(٨) تاريخ الرسل والملوك، تأليف محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار المعارف. الطبعة الثانية بدون تأريخ.

(٩) كتاب الحيوان، للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون مكتبة البابي الحلبي ١٣٥٦هـ.

(١٠) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تأليف عبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق عبد السلام هارون نشر مكتبة الخانجي. الطبعة الثانية بدون تاريخ

(١١) ـ ديوان أبو الأسود الدؤلي، تحقيق محمد حسن آل ياسين منشورات مكتبة النهضة بغداد، تاريخ ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.

(١٢) ـ ديوان امرىء القيس، جمع حسن السندوبي، المكتبة التجارية الطبعة الخامسة بدون تاريخ.

(١٣) ـ ديوان تميم بن أُبَيّ بن أبي مقبل، تحقيق عزة حسن، دمشق ١٣٨١هـ ـ ١٩٦٢م.

(١٤) ـ ديوان توبة بن الحميّر الخفاجي، تحقيق خليل ابراهيم العطية مطبعة الإرشاد بغداد، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٨م.

(١٥) ـ ديوان جميل بثينة، تحقيق بطرس البستاني، دار صادر، تأريخ ١٩٥٣م.

(١٦) ـ ديوان ذي الرّمة، شرح أبي نصر ورواية ثعلب، تحقيق عبد القدوس أبو صالح مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق تأريخ ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.

(١٧) ـ ديوان زيد بن الطثرية، تحقيق ناصر سعد الرشيد، نشر دار مكة، تأريخ ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

(٢٠) ـ ديوان المزرد بن ضرار، تحقيق خليل ابراهيم العطية، مطبعة أسد: بغداد تاريخ ١٩٦٢م.

(٢١) ـ ديوان سراقة البارقي، حققه وشرحه حسين نصار، لجنة التأليف والترجمة والنشر، تأريخ ١٣٦٦هـ ـ ١٩٤٧م.

(٢٢) ـ ديوان القتال الكلابي: تحقيق إحساب عباس دار الثقافة بيروت ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م.

(٢٣) ـ ديوان الطفيل الغنوي، تحقيق محمد عبد القادر أحمد، نشر دار الكتاب الجديد، الطبعة الأولى، تأريخ ١٩٦٨م.

(٢٤) ديوان سحيم عبد بني الحسحاس، تحقيق الأستاذ عبد العزيز الميمني، نشر الدار القومية للطباعة، تأريخ ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٥م.

(٢٥) ديوان عبيدالله بن الحر: حياته وشعره، تحقيق وجمع جورج قنازع بحث في مجلة الجامعة العبرية في القدس، تأريخ ١٩٨٢م.

(٢٦) شعر عبدالله بن الزبير، جمع وتحقيق، يحي الجبوري، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

(٢٧) ديوان عبيدالله بْنَ قيس الرقيات، تحقيق محمد يوسف نجم نشر دار صادر، تأريخ ١٣٧٨هـ ـ ١٩٧٤م.

(٢٨) ديوان كثير عزة، جمع وشرح إحسان عباس، نشر دار الثقافة تأريخ ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م.

(٢٩) ديوان مسكين الدارمي، جمع وتحقيق عبدالله الجبوري، وأخر دار البصري، تأريخ ١٣٨٩هـ ـ ١٩٧٠م.

(٣٠) ديوان يزيد بن مفرغ الحميري، تحقيق عبد القدوس أبو صالح.

(٣١) ديوان عمر بن لجا التيمي التميمي. جمع يحيي الجبوري، دار القلم، الكويت، الطبعة الثانية، تاريخ ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

(٣٢) ديوان الراعي النميري، جمع وتحقيق راينهرت فايبرت، نشر دار النشر فرانتس، بيروت، تأريخ ١٤٠١هـ ـ ١٩٨٠م.

(٣٣) طبائع النساء، تأليف أحمد بن محمد بن عبد ربه، تحقيق محمد ابراهيم سليم، نشر مكتبة القرآن، تأريخ ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

(٣٤) طبقات فحول الشعراء، تأليف محمد بن سلام الجمحي، تحقيق محمود محمد شاكر، نشر مطبعة المدني، تأريخ ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

(٣٥) العقد الفريد، تأليف أحمد بن محمد بن عبد ربه، تحقيق أحمد أمين وأخرين، نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر الطبعة الثالثة، تأريخ ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٥م.

(٣٦) الغزل في العصر الجاهلي، تأليف أحمد محمد الحوفي، نشر دار نهضة مصر، الطبعة الثالثة، تأريخ ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٣م.

(٣٧) كتاب مجمع الأمثال تأليف أحمد بن محمد الميداني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية، تأريخ ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م.

(٣٨) المرأة في الشعر الجاهلي، تأليف أحمد محمد الحوفي، نشر دار الفكر العربي، الطبعة الثانية، تأريخ ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م.

(٣٩) المزهر في علوم اللغة تأليف جلال الدين السيوطي، نشر دار إحياء الكتب العربية، بدون تأريخ.

(٤٠) النقائض، نقائض جرير والفرزدي، تأليف أبي عبيدة، تحقيق بيفن، نشر دار الكتاب العربي، تأريخ ١٩٠٥م.

(٤١) النوادر في اللغة، تأليف أبي زيد سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاري، نشر دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية تأريخ ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م.

◆